Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

التكامل المنهجي بين التجديد والإصلاح عند الإمام الشاطبي

عبد العزيز فيسون
جامعة محمد الأول بوجدة المغرب

استلام البحث:21-12-2024 مراجعة البحث :26-01-2025 قبول البحث:16-02-2025

الملخص

تهدف هذه الورقة إلى مناقشة جوانب التكامل بين التجديد والإصلاح في منهج الإمام الشاطبي وإبراز العلاقة الناظمة بينهما تحقيقا للتوازن بين التجديد والإصلاح في الفكر وامتدادهما عمليا وتطبيقيا في السلوك وفق معايير وضوابط منظمة، تنطلق من التصور الذهني وتنتهي بعرض النتائج باعتماد منهج استقرائي كأداة مركزية ضابطة لكل المناهج وحاكمة عليها، حيث مثل حجر الزاوية في المناهج التي أقام عليها منظوره التجديدي الإصلاحي، وامتاز بخصائص جعلت منه منهجا متوازنا يجمع بين النظر في المعقولات والشرعيات، والأصول والفروع، وتوظيفه له فيما ينفع.

المنهج الإصلاحي عند الإمام الشاطبي هو منهج إحيائي سعى من خلاله إلى رسم خطة واضحة لتنزيل مشروع إصلاحي متكامل يقوم على أساسين متوازيين:

الأساس النظري: وضح فيه منهج أهل السنة وتبناه كمرتكز للإصلاح.

الأساس العملي: بانخراطه في الإصلاح ميدانيا، عبر تقلد مجموعة من المهام الدينية بمنهج قويم هدف فيه إلى تجديد العلم وإصلاح العمل.

الكلمات المفتاحية: الشاطبي، المنهج، التجديد، الإصلاح، التكامل

Abstract:

This paper aims to discuss the aspects of integration between renewal and reform in the methodology of Imam Al-Shatibi, highlighting the regulatory relationship between them to achieve balance between renewal and reform in thought, and their practical extension into behavior according to organized standards and controls that begin with a conceptual framework and concludes with presenting results, relying on an inductive approach as a central tool that governs and regulates all other methodologies. This approach serves as the cornerstone of the methodologies upon which his renewal and reform perspective is built, characterized by a balanced methodology that combines rational and religious considerations, as well as foundational principles and their branches, employing them for beneficial purposes.

The reform methodology of Imam Al-Shatibi is a revitalizing approach through which he sought to outline a clear plan for implementing a comprehensive reform project based on two foundations:

1- the theoretical foundation: in it, he clarified the methodology of Ahl al-Sunnah (the people of the Sunnah) and adopted it as the cornerstone for reform.

2- The Practical Foundation: Taking action by assuming a set of religious roles with a solid methodology aimed at renewing knowledge and reforming practice.

Keywords: Al-shatibi- Methodology- Reform-Renewal- Integration

مقدمة

ان المناهج تشكل أداة مهمة، لتطوير العلوم وإصلاح الفكر، لذلك أولاها العلماء عناية خاصة، وطوروها وجددوا فيها، وأصلحوا فيها وبها مختلف العلوم، بغية الرقي بالأفراد والجماعات، وإصلاح التدين في الحياة، ولن يتم هذا دون إصلاح شامل لمناهج الفكر، كونها مقدمة أساسية للتغيير المحمود المنشود، وفق رؤية إصلاحية تجديدية شاملة، تنطلق من

المراجعة وإصلاح الخلل، وتستشرف المستقبل، بتطوير وإصلاح العلم والعمل، فالإصلاح إذاً قرين التجديد، و هو ضد الإفساد، والإفساد يعني تغييرا في حقيقة الشيء، وكلمة "التجديد"، مشتقة من "جَدّ"، والجديد نقيض الخَلِق، أي المتهالك. والمتهالك يحتاج حتما إلى إعادة الإصلاح، فهما كلمتان قد تبدوان متشابهتين في المعنى، لكن هذا التشابه لا يعنى انصهار أحدهما في الآخر وذوبانه فيه؛ بل إن هناك فرقا بينهما ينحو بمراد كل منهما إلى وجهة مختلفة، فالإصلاح يعني وجود دخيل على أصل شيء غيَّر من حقيقته وطبيعته وأصله، مما استلزم إزالة ما لَحِق بالأصل من فساد واختلال واضطراب.

أما التجديد فيشير إلى بقاء الشيء على حقيقته وأصله، لكن أصابه البِلى مع طول الزمان، مما يستلزم تدعيم ما تهالك منه[1].

والبِلى المقصود في العلوم الدينية الإسلامية، هو ذلك الجمود في تفسير النصوص، والاكتفاء بالشروحات والتلخيصات والجمع، والتعليقات والحواشي والاختصارات، وهو ما عرف إبان عصر الجمود والتقليد والتفريع على المذاهب.

- **أولاً: أهداف البحث:**

يروم البحث الكشف عن منهج الإمام الشاطبي في التجديد والإصلاح، وأوجه التكامل بينهما وحاجة كل منها للآخر وذلك بـ:

- ✓ التنبيه على بذل الشاطبي وسعه إلى إعادة هيكلة النظام الأصولي وتجديده بطريقة مبتكرة وفق ضوابط منهجية تهم قضايا التفكير والواقع والنص الشرعي.
- ✓ التأكيد على حرص الإمام الشاطبي الموازنة بين التجديد والإصلاح الفكري والتطبيق العملي ومدى التزامه الجمع بينهما.
- ✓ الوقوف على المعايير الضابطة لمنهج الشاطبي في التقعيد الأصولي وفق تسلسل منظم يبدأ بالتصور وينتهي بعرض النتائج.
- ✓ الوقوف على مركزية المنهج الاستقرائي في التجديد والإصلاح.
- ✓ التأكيد على تميز الشاطبي باعتماده مناهج دقيقة تعصم من الزلل.
- ✓ الكشف عن العلاقة النسقية بين المنهجين وأثرهما في تحقيق التوازن والتكامل بين العلم والعمل.

[1] جدل التحديث والدين أوجه الخلاف بين مفهومي الإصلاح والتجديد، على موقع عربي 21 للباحث شريف أيمن. بتصرف

- **ثانياً: إشكالية البحث**

تميز الإمام الشاطبي بنظرة شمولية تبدت في إعادة النظر في التصور التقليدي للعلوم الإسلامية بابتكار منهج جديد وظف فيه جملة من المبادئ والمفاهيم المعرفية الذي أسس بها لفكر جديد استهدف التجديد في الشكل والمضمون وأدوات النظر من جهة أولى.

ومن جهة ثانية أسس مادة أصولية جديدة، أو طور ما كان موجودا، إن على مستوى المنهج أو المضمون.

فما منهجه التجديدي الإصلاحي الذي رام تحقيقه في إرثه العلمي، وقصد من وراء ذلك إصلاح ما فسد؟ وهل كان منهجه التجديدي الإصلاحي مصوغ وفق نظرية متكاملة تجمع بين الفهم والنظر، والتطبيق والتماس الأثر، وهو الرجل الذي ما انفك ينادي بضرورة الجمع بين العلم والعمل. وما أثر المنهجين في ترشيد الاجتهاد وتحقيق الغاية والمقصد، ذلك ما ستحاول هذه الورقات الإجابة عنه.

- **ثالثاً: أهمية البحث**

من المتفق عليه عند المشتغلين بالدراسات والبحوث أن أهمية أي بحث تقاس بمدى الجدة في تناوله وعرضه، والإضافة التي سيقدمها في الميدان البحثي، وبالنظر في موضوع:

"**التكامل المنهجي بين التجديد والإصلاح عند الإمام الشاطبي**" اتضح لي أن أهمية هذه الدراسة ستمكننا من الكشف عن منهج الإمام الشاطبي في التجديد والإصلاح وكيف ضبطه بقواعد وضوابط جعلت منه منهجا واضح المعالم متكامل الأركان تجلت عبقريته فيه بالجمع بين حسن الفهم والنظر واختيار أفضل الطرق لتسديد التنزيل وتلمس الأثر.

- **رابعاً: المنهج المتبع في البحث**

كان لزاماً على أن أستعين بأكثر من منهج؛ لأن حاجة البحث دعت إلى ذلك.

فقد اعتمد في هذه الدراسة على:

- ☒ المنهج التحليلي تفكيكاً وتركيباً وتقويماً.
- ☒ المنهج المقارن بمقارنة الدراسة بين منهجي التجديد والإصلاح لإثبات العلاقة النسقية بين المنهجين، بحيث يكمل كل واحد منهما الآخر.

- **خامساً: الدراسات السابقة**

لما كان الإمام الشاطبي شخصية متفردة في نبوغها، انكب اهتمام الباحثين على دراسة ما خلفه من إرث فكري وخاصة مؤلفيه: "الموافقات" و"الاعتصام" الذين خصا بالدراسة والبحث في جوانب عديدة، ويّتضح من هذه الدراسات أن الجزء الأكبر منها اهتم بالأصول والمقاصد، أما منهجه التكاملي بين التجديد والإصلاح الهادف الجمع بين ما هو نظري وتطبيقي في شكل قواعد ضابطة ومعايير محددة لتسديد عملية التنزيل، فلم أجد – بعد البحث والاطلاع – دراسة أفردت الموضوع بالذكر في بحث أكاديمي مستقل، إلا ما كان من دراسات تحدثت عن معالم التجديد أو عن منهج الاستقراء، أذكر منها على سبيل المثال:

1. معالم التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي – لحساسنة– دراسة تحليلية نقدية لأهم الأدوات المنهجية وأبرز المضامين الأصولية، وهو بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية – ماليزيا– يونيو 2005 م

البحث عرض لأهم المبادئ الأصولية التي حددت الإطار العام لطبيعة بحثه

الأصولي وطبيعة مساره واتجاهه حيث ناقش بعض القضايا الأساسية الأصولية مثل منظوره لمقاصد الشريعة، وموقفه من قطعية القواعد الأصولية، وبعض المباحث المنطقية، وتعرض أيضاً لتحليل بعض الأدوات المنهجية التي وظفها الإمام الشاطبي من مثل: مباحث الاستقراء وبرهان الخلف والاستدلال العقلي.

مناقشة بعض قضايا القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية، وطبيعة توظيف ذلك

أصوليا، وقد تتبع الباحث أهم القواعد المنهجية وأساليب البحث والتدليل الأصولي التي سلكها الشاطبي وتبناها في كتابته الأصولية.

2. التجديد والمجددون في أصول الفقه لأبي الفضل عبد السلام محمد عبد الكريم، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الثالثة–2007 م الكتاب هو دراسة نقدية تنقيحية تتبعت الجهود النقدية والتجديدية لعلماء الأصول القدماء والمحدثين، واستثمار تلك الجهود في استخلاص منهج قويم يؤسس لإحياء العلم وتجديده والرجوع به إلى منبع الصفاء الأول وفق أصول وقواعد تعصم من الزلل في الفهم وتيسر استنباط الأحكام والتعامل معها تعاملا رشيدا عقديا وعمليا، وقد خصص الباحث الباب الثاني منه للتجديد في الأصول عند أعلام هذا الفن، جاء الفصل الرابع منه لآثار الإمام الشاطبي التجديدية التي حصرها الباحث في سبعة عشرة خصيصة، ختمها ببعض ما يؤخذ عليه.

3. التجديد في أصول الفقه – الإمام الشاطبي أنموذجا – المؤلف عبد الله يوسف أحمد الأنصاري – الكويت – وهو بحث ضمن مجلة الدراسات العربية المجلد 35، العدد 10 يناير 2017. قسمه فيه الباحث الموضوع إلى مبحثين: تناول موضوع التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي في المبحث الثاني في مطالب أذكر منها ما له علاقة بالتجديد على النحو الآتي:

- تحديد الألفاظ والمعني ودوره في التجديد
- مراعاة الخلاف وأثره في التجديد الفقهي
- التجديد الذي يؤدي إلى تفرق الأمة فهو مردود
- التجديد في النصوص يكون في الوقوف على مقاصدها دون تعنت

وتكلف

- التجديد في إنزال النص الشرعي على الفهم التقريبي
- التجديد يكون بكل معني مستنبط من النص لا يخدم جوانب الحياة فهو
- مردود

- **سادساً: خطة البحث**

قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة تتضمن أهم النتائج على الشكل الآتي:

المقدمة: وتتضمن أهداف البحث وإشكاليته والمنهج المعتمد فيه والدراسات السابقة.

- **المبحث الأول: المنهج التجديدي عند الشاطبي**
- **المبحث الثاني: خصائص المنهج التجديدي عند الشاطبي**
- **المبحث الثالث: المنهج الإصلاحي عند الشاطبي**

وستقدم هذه الورقة البحثية دراسة حول منهج التجديد والإصلاح وبعض تطبيقاتهما عند الشاطبي بانتظام ذلك في المباحث الآتية:

- **المبحث الأول المنهج التجديدي عند الشاطبي**

من المعلوم أن بذور التجديد الأولى في أصول الفقه، بدأ بشريا وعقليا واجتهاديا في القرن الثالث الهجري مع الإمام الشافعي في الرسالة، فهو إذاً المشروع الأول للتجديد في هذا العلم، وقد رسمه وفق قواعد وضوابط منهجية لأحكام الشريعة الإسلامية، وتوالت التجديدات بعد ذلك، إلى أن جاء القرن الثامن الهجري، فأسس الشاطبي –الذي يعتبر الرجل الثاني في علم أصول الفقه حسب اعتقادي بعد الإمام الشافعي–، مرحلة جديدة بإعادة هيكلة النظام الأصولي، باعتباره حاكما على العقل الفقهي بشكل أو بآخر، بطريقة مختلفة ومبتكرة، تمثلت في منهج تجديدي هم قضايا التفكير، وقضايا الواقع، وقضايا النص الشرعي، جاء نتاج نظام معرفي محدد، أصل له الشافعي، ثم طوره الإمام الشاطبي؛ حيث أسهم بدور مهم وفعال في تجديد هذا العلم، فهو أحد أبرز المبدعين فيه على وجه التحديد، ويتيمة ظهره الموافقات بحسب تعبيره، خير شاهد على ذلك، فقد توجهت همته إلى التجديد والإصلاح، بتحقيق غايته المنشودة، تجديدا للعلم والفكر أولا، ثم امتداد هذا التجديد والإصلاح عمليا وتطبيقيا ليشمل مختلف مجالات الحياة، باعتبار "أن حركات الإصلاح الاجتماعي، هي في جوهرها تجديد فكري، لأنه ليس هناك أي حركة إصلاحية لا تقوم على الفكر، أو لا ينشأ عن التغيير الذي تحدثه تغيير في الأفكار"[2].

وإبداعه فيه تجلى في التوسع في إدراك المعاني، والأفكار، والأحكام، أثناء استنباطها وتطبيقها، وهذ التوسع يتكئ على أساسيين متكاملين، أولهما:

فقه النص، وهو الذي استوى على سوقه وأصبح يتوارد عليه أغلب النظار بالبسط والتحليل والاستثمار. وثاني هذين المنهجين هو:

فقه التنزيل، الذي يعد فقها عمليا، تتجلى فيه غاية التشريع ومقاصده، وهو مرحلة أساسية من مراحل تفعيل أحكام الشريعة وتنزيلها على الوقائع والمستجِدات، بعد مرحلة الفهم والإدراك للنصوص الشرعية، ولا تتم هذه العملية إلا بالجمع بين المرحلتين، فهما وتنزيلا؛ وبتعبير آخر فإن علم الأصول عند الشاطبي مبني على منهج التنزيل والتطبيق، في حين أنه انبنى عند من سبقه على منهج الفهم والاستنباط.

التنزيل إذاً له مكانة متميزة في فكر الإمام الشاطبي، وهو ما يتلاءم وروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها، وهذا هو التجديد بالمعنى الحقيقي، (بالمفهوم المعاصر الآن)، وقد استفاد في كل ذلك ممن سبقه من الأصوليين، ومن مؤلفاتهم الوفيرة، إما بجمع المتناثر من أفكارهم فيها، أو المنسي والمهمل منها، –خاصة المشهود لهم بالباع الطويل في أصول الفقه، ممن

[2] الشاطبي ومقاصد الشريعة لحماد لعبيدي الناشر، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1992 م –ص 200.

كانت لهم انتباهات قليلة، في إدراك أهمية الجانب الثاني –فقه التنزيل–دون الكشف عن مناهج هذه الصياغة، وضوابط مراعاة هذا الواقع عند تنزيل الأحكام من أمثال، الإمام الجويني، خاصة في كتابه "الغياث"، وتلميذه الغزالي في "الإحياء"، والعز بن عبدالسلام في " قواعد الأحكام"، أو ممن أخذ عنهم مشافهة، كالشريف التلمساني والقباب وغيرهم، وقد احتفى بهذه المؤلفات، وأنزلها منزلتها، وأعاد صياغتها بشكل مبتكر، إما بانتقاء الأفيد منها، والبناء عليها، وإما بإعادة النظر في التصورات التقليدية لأصحابها لتصحيح المسار.

ولعل السمة البارزة في منهجه المبتكر، اعتماده عناصر جديدة في التقعيد الأصولي الذي يعد منهجاً شبه مطرد؛ سواء في الموافقات أو الاعتصام، فيبدأ:

1. بتصور المسألة تصورا شاملا
2. يربطها بما قبلها
3. يحرر محل النزاع:
4. يذكر منشأ الخلاف في المسألة
5. يحدد نوع الخلاف
6. يورد أقوال الفقهاء في المسألة
7. استدلال الفقهاء لهذه الأقوال، إما إثباتا للمسألة، أو إنكارا لها
8. وجه الاستدلال من الأدلة، إما نقلية أو عقلية
9. مناقشة ما ورد من تلك الأدلة
10. ذكر الاعتراضات المحتملة
11. رده لتلك الاعتراضات، الذي يتميز في الغالب بالدقة وحسن التوظيف للمعلومات:
12. اختيار المذهب الراجح في المسألة، ووجه ترجيحه
13. بيان ثمرة الخلاف في المسألة.
14. توضيح ما ينبني على المسألة من مبادئ وأحكام.

فهذه جملة من العناصر المعتمدة في بيان منهجه، وهو منهج تجديدي في هذه العملية التراكمية، يتم وفق تسلسل ترتيبي منظم، يبدأ بتصوير المسائل في الذهن، وينتهي بعرض النتائج.

ولعل هذا الملحظ، يلحظه ويدركه، كل متصفح لمؤلفيه: الموافقات والاعتصام، وكذا بعض مواقفه من القضايا العقدية، وكيف كان يتصور المسألة في خلده، ويربطها بموضعها، أو مواضعها في الكتاب، أو يحيل عليها في الكتاب الآخر، و يحرر محل النزاع، ومنشأ الخلاف فيها بين المذاهب، أو الطوائف، ويستعرض أقوال علماء الأصول فيها، وأدلة كل فريق، ويناقش هذه الأدلة، وكيف تعاطى معها كل فريق حسب تصوره واعتقاده، وخلفيته العقدية والمذهبية، ويتوسع في مناقشته لهذه الأدلة بشكل مستفيض، مع إيراد الأمثلة وافتراض اعتراضات الخصوم والإجابة عنها، ويرجح حسب ما أفضى إليه اجتهاده.

والملحظ في كل ما ذكر، أن الإمام الشاطبي، ابتكر نمطا تأليفيا مختلفا عمن سبقه، وهو من أشكال الإبداع والتجديد عنده، معتمدا في طريقة الوصول إلى هدفه المنشود، على المنهج الاستقرائي بالدرجة الأولى، للاستدلال على القواعد والمسائل الأصولية والمقاصدية، وهو أعظم المناهج، لأنه لا يقوم على مجرد الجمع والتحليل والتوصيف والاختزال والتهذيب فقط؛ بل يفترض المعلومة، ويستخرج منها حقائق جديدة، وهذا المنزع الاستقرائي أكده منذ البداية باعتباره مسلكا تجديديا، هو عمدته في دراسته النقدية التحليلية، وهو ما صرح به في خطبة كتاب الموافقات حيث قال: "ولما بدأ من مكنون السر ما بدا ووفق الله الكريم لما شاء منه وهدى لم أزل أقيد من أوابد وضم من شوارده تفاصيل وجملا واسواق من شواهده في مصادر الحكم وموارده مبينا لا مجملا معتمدا على الاستقراءات الكلية غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية حسبما أعطته الاستطاعة والمنة ! في بيان مقاصد الكتاب والسنة[3].

فمنهجه الاستقرائي، جمع من خلاله ما تفرق عند غيره ممن سبقه من الأصوليين في القضايا الأصولية، واستنبط منها عدة قواعد بعد تركيبها وتحليلها وتوصيفها، وهذا التوصيف والتحليل والتركيب للمسألة أو المسائل كما عرضها أصحابها في مؤلفاتهم، هو توصيف صحيح كما جاء عنهم دون زيادة ولا نقصان، من حيث اتفاقهم في المسائل، أو اختلافهم حولها، وقد بينت ذلك قريبا من خلال تقعيده للأصول باعتماد عناصر المنهج الوصفي التحليلي التركيبي في أربعة عشر عنصرا، ليبني عليه المنهج الاستقرائي، الذي هو عمدته في الموافقات والاعتصام، والذي خالف فيه منهج علماء الأصول السابقين من قبله، ورتب منه قواعد جديدة، وبنى عليه أحكاما عملية سلوكية، وهو ما سبق ذكره في فقه التنزيل بعد فقه النص، فحضور النزعة التنزيلية، أو البعد التنزيلي، كان دائما في مفكرته، وهذا من إبداعه كما أسلفت الذكر.

[3] الموافقات للإمام الشاطبي، تحقيق وتعليق الدكتور الحسين أيت سعيد، أستاذ التعليم العالي بجامعة مراكش – المملكة المغربية، مراجعة وتنسيق الدكتور محمد ولاد عتو، منشورات البشير بنعطية، – فاس – المغرب، الطبعة الأولى 2017 م 2/18–19.

فإذا تتبعت مكتوباته، ستجد كل تلك المناهج حاضرة فيها، لكن أهم منهج أقام عليه منظوره التجديدي الإصلاحي تمثل في المنهج الاستقرائي، وقد تحرى بعض الباحثين منهجه الخاص "فوجده قائما في خصائص ومميزات[4] نعرضها من خلال المبحث الآتي:

- **المبحث الثاني: خصائص المنهج التجديدي عند الشاطبي**

لقد نبغ الإمام الشاطبي في شتى الفنون التي درسها، وتميز بين علماء الشريعة، بالإبداع والابتكار في الفنون التي ألف فيها، "بعدما لم يقنع بالحد الذي وصلت إليه جهود من سبقه من الأصوليين فتكون لديه هاجس البحث عن البديل الذي أوقع في نفسه معاناة تطلب الخروج منها صرف الليالي والأوقات، فكان عطاؤه فيه قمة في الجودة والإتقان"[5]، ومن هنا كانت له هذه الهمة الرفيعة في الانفراد والتميز عن غيره، وقد مر معنا قريبا أن الذي ساهم في ذلك، هو المنهج العلمي المحكم الذي اعتمده كخارطة طريق توصله إلى المبتغى من التأليف المبتكر، ولا شك أن مما ساعده فيه [التجديد والإبداع]، كون هذا المنهج امتاز بخصائص فريدة؛ كان من أهمها أنه منهج متزن، يجمع بين النظر في المعقولات والشرعيات، والأصول والفروع، ويمتاز بخاصية الاعتدال والتوسط والنصفة في الرأي، من خلال آرائه في الاجتهاد والتقليد والتمذهب، إضافة إلى نظرته الشمولية لأحكام الإسلام، باتساع دائرة الدرس الأصولي ليشمل عنده كافة أركان الدين، ولم تكن نظرته لمعالم الدين نظرة سطحية؛ بل تميزت بالدقة في الفهم، والتعمق في التعامل مع النصوص الشرعية، والغوص في أسرار الشريعة وحِكَمِهَا، غير مقتصر على ظواهر النصوص، ولعل كل هذا جعل منهجه التجديدي متميزاً، لأنه بناه على أساس محكم البنيان، حسن الترتيب، كل خطوة فيه تعتمد على ما قبلها وتكمله[6] وفيما يلي أسرد أهم الخصائص التي تميز بها منهجه التجديدي كما أوردها بعض الباحثين، فقد ذكر أبو الفضل محمد بن عبد الكريم أن الإمام الشاطبي بنى تأصيلاته على الاستقراء، وهذا من ألزم خصائص المنهج الأصولي عنده[7]، وقد مر معنا قريباً أنه عمدته في الكتاب؛ بل هو خاصية كتابه الموافقات، كما ذكر في مقدمته.

---

[4] التجديد والمجددون في أصول الفقه، لأبي الفضل عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع – القاهرة–الطبعة الثالثة 2007 م – ص 265، والإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره، للأستاذ تميم الحلواني بحث ضمن مجلة دار الحديث الحسنية العدد 13– ص 239. ومنهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي للدكتور عبد الحميد العلمي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية 2001 م. والقواعد الأصولية عند الإمام الشاطبي من خلال كتابة الموافقات للدكتور الجيلالي لمريني، الناشر: دار ابن القيم ودار ابن عفان– الطبعة الأولى 2002 م.

[5] منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي / 104 وما بعدها.

[6] الإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره، مصدر سابق/14.

[7] المصدر نفسه/ 274.

وقد عول على الاستقراء واستند عليه بعد دليل الكتاب والسنة وأقوال السلف، في إثبات القواعد والكليات، وما ذكره في كتبه من آراء وترجيحات، واقتنص به سيما إذا كان استقراء كليا القطعيات من الظنيات، ولا يقدح في هذه الظنيات تخلف بعض جزئياتها، " فإن الغالب الأكثري معتبر في الشريعة اعتبار العام القطعي؛ لأن المتخلفات الجزئية لا ينتظم منها كلي يعارض هذا الكلي الثابت. هذا شأن الكليات الاستقرائية"[8] فهذا الاستناد الكلي من الشاطبي على منهج الاستقراء، وهذا التميز الذي أعطاه لهذا المنهج، هو الذي جعله يرتقي بعلم أصول الفقه إلى مستوى اليقين.

وإذا كان الاستقراء خاصية كتابه الموافقات، انتقل به من درجة الظنيات إلى اليقينيات القطعيات، فإنه وظفه في مواضع متعددة من كتابيه، الاعتصام والموافقات، إلى درجة يصعب عدها وحصرها، لكن أهم ما يميز منهج الاستقراء عنده، هو توظيفه فيما يعتبر نافعا، فقد أورد الأستاذ تميم الحلواني في بحثه الموسوم بـ "الخصائص العامة لفكر الإمام الشاطبي" أنه لم يعمل بهذا المنهج في مجال البدع والضلالات؛ لأنها تتصف بقابلية التجديد وتتأثر بظروف الزمان والمكان، ولذلك لجأ فيها إلى طريقة التأصيل والتقعيد[9].

ومن خصائص هذا المنهج، اعتماده عليه في إثبات كليات الشريعة وقواعدها وأحكامها، وهي من الخصائص التي تمتع بها الإمام الشاطبي، حيث وجه عنايته الفائقة إلى الاهتمام بكليات الشريعة بدل الجزئيات، وإن كانت جزئيات، فإنه يضم بعضها إلى بعض حتى يصل إلى معنى كلي يتصف بالقطع واليقين، ومن ثم تصبح هذه الكليات، بمثابة معيار حاكم على جزئيات أخرى، تدخل تحتها، وتنتظم في سلكها، وهذه من خاصيات اعتماده هذا المنهج في مؤلفيه بالدرجة الأولى الموافقات، ثم الاعتصام، وهو" قائم على استقراء الفروع الفقهية من أدلتها، وبناء القواعد والأصول عليها بناء حَرَّاً حسب ما يسوق إليه الدليل والنظر الموضوعي المتجرد، ولا شك أن هذا فيه ما فيه من دقة التنظير ومتانة التأصيل"[10]، والكليات والقواعد، يقصد بها الضروريات والحاجيات والتحسينات، كما صرح بذلك في المقدمة الأولى بقوله: "وأعني بالكليات هنا: الضروريات والحاجيات، والتحسينيات"[11].

وقد تميز فكره على العموم بخاصية التركيز على النظر الكلي، وكان لهذا الفكر أثره الإيجابي على مختلف آرائه ومواقفه في المسائل العلمية، وما التطبيقات التي عمم عليها منهجه الاستقرائي، واعتبره بمثابة قانون كلي تتبعي، يحكم جميع الجزئيات تحته، إلا شاهد على هذا التميز.

---

[8] الموافقات / 120/3.

[9] الإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره، مصدر سابق/30.

[10] التجديد والمجددون في أصول الفقه –ص 277.

[11] الموافقات 33/2.

ومن النماذج التطبيقية التي أوردها الأستاذ تميم الحلواني لهذا النظر الكلي عند الإمام الشاطبي:

1- أنه اعتبر شرط بلوغ مرتبة المجتهد الرباني، هو الجمع بين إدراك الكليات، وملكة تنزيلها على الفروع[12].

2- إنه فسر كمال الدين بإكمال أصوله الكلية العامة: فهو يرى أن الحالة التي وضعت عليها الشريعة هي حالة الكلية[13].

3- قوله بالوحدة الموضوعية لكتاب الله عز وجل[14]، نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم.

4- معالجته للقضايا العلمية التي تعرض لها في مؤلفاته من جهة كلياتها أولا وبالدرجة الأهم[15]: ومثال ذلك أنه حينما أراد أن يتكلم عن الأدلة الشرعية تناولها من وجهين: أحدهما على الإجمال، والثاني على التفصيل، ولما بدأ الحديث عن الأول قال: والكلام فيها [أي في الأدلة] في كليات تتعلق بها وفى العوارض اللاحقة لها[16] .ثم بسط هذه الكليات في أربعة عشر مسألة.

- **المبحث الثالث المنهج الإصلاحي عند الشاطبي**

إن الحديث عن المنهج الإصلاحي عند الإمام الشاطبي، هو استكمال للحديث عن المنهج التجديدي، فقد سبقت الإشارة إلى أن أي حركة إصلاحية في المجتمع، هي في حقيقة الأمر، نتيجة لرؤية فكرية تجديدية، أي أن الإصلاح في جوهره تجديد فكري، والإمام الشاطبي وهو يخطط لتنزيل هذا الإصلاح وإمضائه، كان حائرا في اختيار المنهج الذي به يمكن إصلاح ما فسد من واقعه الموبوء، الذي انتشرت فيه البدع وانحرف فيه التصوف، وقد حلل هذا الجانب وهذه الحيرة التي اعتورته وهو يتوخى اختيار المنهج الإصلاحي، شيخ الزيتونة الفاضل الطاهر ابن عاشور في كتابه أعلام الفكر، حيث ذكر أن حيرته كانت بين مذهبين هما:

مذهب إخوان الصفا وأبو العلاء المعري، الذين كانوا يعتقدون أن الدين النظري شيء والواقع شيء آخر، ومذهب المتصوفة، الذين يعتبرون الحقيقة الدينية في الإخلاص الباطني، وعزل الحياة العلمية عنها، وهو ما قام بنقده في المذهبين

[12] الموافقات 283/5.

[13] الاعتصام 816/2.

[14] الموافقات، 4/ 835.

[15] الإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره –ص 19-20.

[16] الموافقات 5/4.

معا، حيث عدل عنهما، واتجه إلى منهج يجمع فيه بين العلم والعمل، ويصلح الظاهر والباطن، فكانت الشريعة بمقاصدها منطلقه إلى الإصلاح[17].

فمنهجه مصوغ وفق نظرية متكاملة تجمع بين الفهم والنظر، والتطبيق والتماس الأثر، وهو الرجل الذي ما انفك ينادي بضرورة الجمع بين العلم والعمل.

وإذا كان منهج الجمع بين العلم والعمل هو ديدنه في كتاب الموافقات، من خلال نظرية المقاصد وهي من تجديداته، فإن الكتاب المعبر حقيقة عن إكمال هذا الورش الإصلاحي، هو كتاب الاعتصام، الذي ألفه رحمه الله ردا على بعض المتصوفة في زمانه، وبعض الفقهاء الذين كانوا يؤيدونهم، وقد كرس فيه جهوده للإصلاح، وركز على نقض الابتداع في الدين، ومحاربة هذه البدع، وما اعترى حالة التدين، نتيجة الانحرافات العقدية، والانتكاسات السلوكية، وقد أشار في مقدمة كتابه هذا إلى قضيتين مهمتين:

الأولى: أنه ما ألفه إلا بعد تتبع للسنن التي كَادَتْ تُطْفِئُ نُورَهَا تِلْكَ الْمُحْدَثَاتُ، لإحيائها والعمل بها، والبحث عن البدع التي نَبَّهَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَذَّرَ مِنْهَا، وَبَيَّنَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْجَادَّةِ، لتجنبها وإماتتها...واجْتَمَعَ لِي فِي الْبِدَعِ وَالسُّنَنِ أُصُولٌ قَرَّرْتُ أَحْكَامَهَا الشَّرْعِيَّةَ[18].

الثانية: أنه سلك منهج السلف في الإصلاح والدعوة، ولم يحفل بما سيواجهه من اعتراضات المعترضين؛ بل صبر وتحمل ما لقيه من محن شديدة من المتعصبين للعوائد، بعد التردد في الإحجام والإقدام على ذلك، ورأى في نهاية المطاف، أن النجاة في الاعتصام بالسنة، وأنه لا بد من السير على نهج السلف الصالح، وأن كل المحن والابتلاءات تهون، في سبيل تنزيل مشروعه الإصلاحي، وكان قبل ذلك قد تنبأ بحدوث هذا الإنكار إن هو اختار عدم مجاراة أهل البدع ومخالفتهم، وموافقة السنة ومنهج السلف وهو الأسلم، وفي هذا الصدد يقول: "فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس ; فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، ولا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها، إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذا بالله من ذلك[19].

---

[17] أعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي/ محمد الفاضل ابن عاشور الناشر: مكتبة النجاح _ تونس.–ص 78 بتصرف.

[18] الاعتصام 1/39–41

[19] الاعتصام 1/34.

وقد نصب الشاطبي نفسه مقاومًا للبدع في المجتمع والمعرفة، باختيار منهج إحيائي، قوامه إحياء السنن المهجورة، وإماتة ما أحدث من البدع وطمسها، فمنهجه إذاً، منهج إحيائي بالدرجة الأولى، سعى من خلاله إلى رسم خطة واضحة المعالم، بإنجاز مشروع متكامل يقوم على أساسين متوازيين:

الأساس النظري: ينتظم في مجموعة من النقط، استقيتها من مقدمة الاعتصام، وأورد بعضا منها المحققون لهذا الكتاب، من ذلك:

- توضيح منهج أهل السنة والجماعة الذي تبناه كمرتكز للإصلاح، في النظر والاستدلال، وكيفية أخذ الأدلة، وفق منهج الأولين من السلف الصالح، وهو من أظهر خصائص منهجه وأشدها تمكنا في نفسه، فقد كثر عنه نقله وتمسكه بمنهجهم وتعويله عليهم في الفهم والنظر، وبناء قواعده على ما قرروه، فهو يرى أنه " يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل[20].
- بيان منهج أهل السنة فيما يطلب من العلم، –ما هو من صلبه، وما هو من ملحه، وما ليس من الصلب ولا من الملح، وتركيزه على ما يسمى بالأصول النافعة، وتحديد الطرق المعتمدة لأخذ العلم، وتصنيف مراتب العلوم، ومنازل الناس في طلبهم وتحصيلهم للعلم، والهدف من طلبه، وأقسام العلماء والمتعلمين، وهو الهدف الذي حدده ابتداء من المقدمة الثلاثة عشر.
- الرد على المخالفين لمنهج أهل السنة في أخذ الدليل، مع بيان مصادرهم في ذلك، ومآخذ أهل السنة والجماعة، على أهل البدع بالاستدلال.
- توضيح منهج أهل السنة من خلال تأليف الكتب والمراسلات بينه وبين أهل العلم سواء في غرناطة والأندلس أو خارجه من بلاد إفريقيا.
- تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة كمفهوم البدعة وتقسيم بعض العلماء لها إلى حسنة محمودة، وقبيحة مذمومة، وتصحيح بعض المفاهيم التربوية التي يخطئ بعض أرباب التربية في فهمها كالزهد ونحوه، سواء في الاعتصام أو الموافقات.
- الاعتماد على أسلوب التدرج في الإصلاح، وفي التعامل مع تغيير بعض الآفات الاجتماعية، ما استوجب معها القيام بواجب الدعوة والإصلاح، والتدرج في ذلك مع ضرورة التعديل في الطريقة المتبعة، وفي معالجة فشو هذه البدع، وهذا

[20] الموافقات 158/4.

يعطينا فكرة واضحة عن شخصية الشاطبي ومكانته العلمية والأخلاقية، التي على ما يبدو أنها اصطدمت بواقع مرير لم تغير منه محاولات الإصلاح لا من الشاطبي ولا من غيره من الدعاة المخلصين.

- الثبات على الموقف، وتحري الصدق وقول الحق، مهما كلفه الأمر، لأن فيه النجاة الحقيقية يوم القيامة.
- التأني والتتبع على المدى الطويل، واستشارة الثقات من أهل العلم قبل الإقدام على الإصلاح.

الأساس العملي: ويتمثل في انخراط الشاطبي في الإصلاح ميدانيا، عبر تقلد مجموعة من المهام الدينية، مثل الخطابة، والتدريس، والانتصاب للفتوى، إلى جانب الإنكار على أهل زمانه من المبتدعة، بمنهج قويم، بثه وغرسه في نفوس طلابه، وأسس به "مدرسته العلمية التي تهدف إلى تجديد العلم وإصلاح العمل، على قاعدة الرجوع إلى الكتاب والسنة، معتمدا طريقة التأصيل والتقعيد الكلي"[21]، خاصة في كشف حقائق البدع وطرق محاربتها، "لتخليص الإسلام منها، والرجوع به إلى ما كان عليه في الصدر الأول، وهو قوام الإصلاح الذي دعا إليه الشاطبي[22].

خاتمة البحث ونتائجه:

من خلال الغوص في تفاصيل موضوع:

" **التكامل المنهجي بين التجديد والإصلاح عند الإمام الشاطبي** " خلصت إلى النتائج الآتية:

- ✓ اعتماد الإمام الشاطبي منهج الاستقراء وجعله حاكما على المناهج الأخرى وأساسها وضبطه بقواعد وضوابط تجعل منه منهجا واضح المعالم متكامل الأركان يؤسس للجمع بين حسن الفهم والنظر واختيار أفضل الطرق لتسديد التنزيل وتلمس الأثر.
- ✓ تجديد الإمام الشاطبي وإصلاحه للفكر والعمل تم بإعادة هيكلة أصول الفقه بطريقة مبتكرة بمراجعة المادة الأصولية المدونة في مختلف الكتب وإعادة النظر فيها بالتحليل والنقد همت مختلف الجوانب الشكلية والمضمون وأدوات النظر، وتأسيس مادة أصولية جديدة، أو تطوير ما كان موجودا، سواء على مستوى المنهج أو المضمون.

21 الإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره –ص 40 بتصرف.

22 الشاطبي ومقاصد الشريعة حمادي العبيدي –ص 201.

- ✓ منهج الإمام الشاطبي في الإصلاح منهج إحيائي، قوامه إحياء السنن المهجورة، وإماتة ما أحدث من البدع، وهو يقوم على أساسين:

- نظري ببيان منهج أهل السنة من السلف الصالح.
- عملي بانخراطه ميدانياً عبر تقلد مجموعة من المهام الهادفة إلى إصلاح العلم والعمل.

- ✓ وازن الإمام الشاطبي بين العلم والعمل بتحقيق غايته المنشودة، تجديدا للعلم والفكر أولا، ثم امتداد هذا التجديد والإصلاح عمليا وتطبيقيا ليشمل مختلف مجالات الحياة.
- ✓ تكامل منهج التجديد والإصلاح عند الإمام الشاطبي حيث اعتمد التجديد في الخطاب والفهم والمضمون وأدوات النظر واعتبر ذلك من دعامات الإصلاح، واتكأ على الإصلاح في تغيير ما اعوج من الاعتقاد والعمل وبهذا نخلص إلى أن التجديد من منظور الإمام الشاطبي قرين بالإصلاح، والإصلاح لصيق بالتجديد فكلا منهما يكمل الآخر.

قائمة المصادر والمراجع

1. جدل التحديث والدين أوجه الخلاف بين مفهومي الإصلاح والتجديد، للباحث شريف أيمن الناشر: موقع عربي21.
2. الشاطبي ومقاصد الشريعة لحماد لعبيدي الناشر، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1992 م.
3. الموافقات للإمام الشاطبي، تحقيق وتعليق الدكتور الحسين أيت سعيد، أستاذ التعليم العالي بجامعة مراكش – المملكة المغربية، مراجعة وتنسيق الدكتور محمد ولاد عتو، منشورات البشير بنعطية، – فاس – المغرب، الطبعة الأولى 2017 م.
4. التجديد والمجددون في أصول الفقه، لأبي الفضل عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع – القاهرة–الطبعة الثالثة 2007 م.
5. الإمام الشاطبي والخصائص العامة لفكره، للأستاذ تميم الحلواني بحث ضمن مجلة دار الحديث الحسنية العدد 13.

6. منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي للدكتور عبد الحميد العلمي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية 2001 م.
7. القواعد الأصولية عند الإمام الشاطبي من خلال كتابة الموافقات للدكتور الجيلالي لمريني الناشر: دار ابن القيم ودار ابن عفان–الطبعة الأولى 2002م
8. الاعتصام للإمام الشاطبي تحقيق: سليم بن عيد الهلالي الناشر: دار ابن عفان، السعودية الطبعة: الأولى 1992 م
9. أعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي/ محمد الفاضل ابن عاشور الناشر: مكتبة النجاح _ تونس.
10. الشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور حمادي العبيدي الناشر: دار قتيبة للطباعة والتوزيع والنشر – الطبعة الأولى 1992 م.